مُفترَق الطُّرق الرَّهيب

(١) الإنسان عند مُفترَق طريقَين

✚✚✚

[قيل عن أخٍ من الرهبان إنَّه زار شَيخًا كان ساكنًا في المغاير، وكان الشَّيخ ذا عقلٍ متيقِّظٍ لدرجة أنَّه كان حيثما توجَّه يتوقَّف عن السَّير ويستعرض فكره ويسأله: "كيف حالك يا أخي؟ أين نحن؟" فإذا وجد عقلَه يترنَّم بالمزامير ومتضرِّعًا، حمده واستدامه، وإن وجد ذاته متفكِّرًا في أيِّ شيءٍ من الأشياء، شتم ذاته في الحال قائلًا: "هلمَّ من هناك! قف عند حدِّك، والزمْ عملَك!][(١)]

[أخبروا عن شَيخٍ أنَّه كان جالسًا في قلَّايته، فأتاه أحد الإخوة في اللَّيل، وأراد الدُّخول إليه. فلمَّا بلغ الباب، سمع صوتَه من داخلٍ وهو يقول: "يكفي، يكفي! حتَّى متى؟ اذهبوا الآن من قدَّامي!" ثمَّ سمعه يقول: "تعالَ، تعالَ يا صديقي!" فلمَّا دخل إلَيه قال: "لمَن كنتَ تتكلَّم يا أبي؟" قال له: "لحسيَّاتي الرَّديئة كنتُ أطرد، وللصالحات كنتُ أدعو.][(٢)]

كلَّا، لم يكن هذان الشَّيخان القدِّيسان مجنونَين، ولا بلغا أرذلَ العمر فضاع رشدهما، إنَّما هما ينطقان «بِكَلِمَاتِ الصِّدْقِ وَالصَّحْوِ» (أع ٢٦: ٢٥). بل إن لم يكن الإنسان هكذا، فهو مسكينٌ أشبه ما يكون بأصَمَّ لا يسمع، أو بضريرٍ لا يرى، مَثَّلَه القدِّيسون "بقبَّةٍ مرتفعةٍ في وسط السُّوق، وكلُّ من أراد، جاز تحتها"[(٣)]. هذا هو الإنسان، كلُّ إنسان، في كلِّ زمانٍ ومكان: دائمًا في حالِ

---

(١) بستان الرُّهبان، قول ٣٢٦.
(٢) بستان الرُّهبان، قول ٨٨٢.
(٣) بستان الرُّهبان، قول ١١٦٧.

الاختيار بَين نقيضَين. أيًّا كان الإنسان: شابًّا يافعًا في مقتبَل العمر وفي فَوَران الغرائز أم عجوزًا طاعِنًا على مشارف القبر وعلى أعتاب اللُّحود، لا يَبرح واقفًا في موضعٍ واحدٍ ثابتٍ لا يغادره قطّ طوال هذا الدهر: عند مُفترَق طريقَين، وعليه أن يختار بنفسه أيَّ الطَّريقَين يَسلك.

منذ بدء الخليقة، والإنسان يقف دائمًا على مفترَق طريقَين: الحياة والموت: «قَدْ جَعَلْتُ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ. الْبَرَكَةَ وَاللَّعْنَةَ. فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا» (تث ٣٠: ١٩). هكذا أراده الله الَّذي خلقه على صورته ومثاله، أن يكون حرًّا، له أن يختار طريقه بملء إرادته: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ» (تك ٢: ١٦، ١٧). كانت المخالفة - ولا تزال - في متناوَل اليد، قريبةٌ جدًّا، بل إنَّها «فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ» (تك ٣: ٣)، ففي الذَّهاب والإياب تجذب النَّواظر وتثير الحواسّ وتهاجم الإرادة. "أذوق من الشَّجرة المحرَّمة أم لا"[٤]؟ "أقتلُ أخي أم لا"[٥]؟ "أهربُ من هذا المكان أم لا"[٦]؟ "أَأَقْبل هذا الفكر أم لا"؟ "أتصفَّح هذا الموقع أم لا"؟ لكن لماذا لا يفعل الله شيئًا؟ إنْ كان لا بدَّ من الشَّرّ، فلماذا لا يُبعده قليلًا؟ لماذا لا يُصعِّبه قليلًا؟ لماذا لا يُقبِّحه قليلًا؟ أتراه يريد سقوط الإنسان؟ أوَ ينصب له الفخاخ؟ أم لَعلَّه يُسَرُّ بانزلاق قدميه، ويُصَفِّق لهزيمته؟ حاشا وكلَّا! كلُّنا يعرف أنّ الله لا يُسَرُّ بموت الشِّرِّير بل برجوعه عن طريقه[٧]. فلماذا إذًا هذه الحرب الضَّروس التي لا تبرح تحوط بالإنسان؟ ولماذا هذه الرِّياح العاتية الَّتي لا تنفكُّ تهدِّد سفينته؟

إنَّه الحبّ! نعم، هذه هي محبَّة الله للإنسان، أن يجعله حرًّا مثله، فيعطيه الفرصة الَّتي لا تتمتع بها أيُّ خليقةٍ أخرى: أن يُحِبَّ الله حبًّا حقيقيًّا. فلا حُبَّ بلا حرِّيَّة! وكلَّما ازداد مجال الحريَّة وصَعُب اختبارها، عظُمَت المحبَّة وغلا ثمنُها. فالله لا يريد من الإنسان محبَّة طبيعيَّة، كمحبَّة الأمّ أو الأب، بل محبَّة إلهيَّة فائقة، تسمو وتعلو على محبَّات اللَّحم والدَّم: «مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي» (مت ١٠: ٣٧). من أجل ذلك فقد أعطاه الحريَّة الثَّمينة، ووضعه على الدَّوام في مفترق طريقين، حتى إذا ما أحسن الاختيار، تَزَكَّت محبَّتُه وارتقَت من مستوًى طبيعيٍّ إلى آخرَ إلهيّ.

---

(٤) انظر: تك ٣: ٦.
(٥) انظر: تك ٤: ٨.
(٦) انظر: تك ٣٩: ١٢.
(٧) انظر: حز ١٨: ٢٣.

لكن، يا لَلأسف! قد أساء الإنسان الاختيار، وما كان على قدر المسؤوليَّة، فانحطَّ عوض الارتفاع، وأُهين عوض الإكرام. فالحريَّة الَّتي أُهدِيَت له من فرط محبَّة الخالق، جعلها هو أداةً لهلاكه وعلَّةً لسقوطه، وبدا الله وكأنَّه قد أَعطى امتيازًا جليلًا لمَن لا يعرف قيمته، أو استَأمن أهوجَ طائشًا على أثمن كنوزه. وهكذا أمسى تاريخ البشرية مذ ذاك سلسلةً لا تتوقَّف من الإخفاقات، فسادت الشُّرور وعمَّت المظالم، "وتخطَّى البشرُ كلَّ حدودٍ، وأصبحوا يخترعون الشَّرَّ ويتفنَّنون فيه. فكان الجنس البشريّ يَهلك، وكان الإنسان العاقل الَّذي خُلق على صورة الله آخذًا في الاختفاء، وكانت صَنعة الله آخذة في الانحلال. فماذا يفعل الله الكليّ الصَّلاح إذن؟ أيَحتمل أن يرى الفساد يسود البشر، والموت يَنشب أظفاره فيهم؟ وما الفائدة من خلقتهم منذ البدء؟ لأنَّه كان خيرًا لهم لو لم يُخلَقوا من أن يُخلَقوا فيُهمَلوا ويَفنَوْا"[٨].

وهنا حدث ما لا يمكن التَّعبير عنه، وما يتعذَّر على العقل أن يَعِيَه، وما يستعصي على كلِّ شرحٍ أو وصف: «الْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا» (يو ١: ١٤). لا مجالَ ههنا لفَهمٍ أو حكمةٍ أو علمٍ، إنَّما فقط للإيمان الَّذي يَقبل هذه الحقيقة، فينقل صاحبَه توًّا «مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ» (يو ٥: ٢٤). أجل، لقد أخرج اللهُ يدَه من حضنه[٩]، و«كلَّمَنا في ابنه» (عب ١: ٢)، و«افتقدَنا من العلاء» (لو ١: ٧٨). جاء الابن الوحيد، «آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ» (في ٢: ٧)، ووقف موقف الإنسان، هناك هناك على مفترق ذَيْنِك الطَّريقَين.

(٢) إنسان جديد على مفترق الطَّريقَين

رغم عدم معقوليَّتها المطلقة، فحقيقة أن الله الكلمة صار إنسانًا هي جوهر المسيحيّة. فمَن لا يرى يسوع الناصريّ «إِلهًا مُبَارَكًا إِلَى الأَبَدِ» (رو ٩: ٥)، بل مجرَّد «إنسانٍ نبيٍّ مقتدرٍ في الفعل والقول» (لو ٢٤: ١٩)، فهو ليس مسيحيًّا على الإطلاق، بل في أفضل الأحوال أحد أتباع "شِيعة النَّاصريِّين"[١٠]؛ أمَّا من يستعظم الله الكلمة على أن يصير إنسانًا كاملًا، فإنَّه يُكَذِّب ذاك الَّذي أَقَرَّ علانيةً أنَّه إنسان[١١]، ولم يحبَّ لقبًا قَدْرَ محبَّته لِلَقَبِ "ابن الإنسان".

---

(٨) القديس أثناسيوس الرسولي، تجسُّد الكلمة، الفصل ٥، ٦، ترجمة القمص مرقس داود، ١٩٤٢.
(٩) انظر مز ٧٤: ١١.
(١٠) انظر: أع ٢٤: ٥.
(١١) انظر: يو ٨: ٤٠.

إنمَّا المسيحيُّ الحقُّ هو الَّذي يرى في المسيح الاثنين معًا: الإله والإنسان، ومن هذه الرؤية يجني الثمرة المشتهاة الَّتي طالما اشتاق إليها الإنسان الواقف أبدًا على مفترق الطرق الرَّهيب، ألا وهي أن يختار بملء إرادته الخير دون الشَّرّ. هذه هي التقوى، وأمَّا سرُّها فهو المسيح: «عَظِيمٌ هُوَ سِرُّ التَّقْوَى: اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ» (١تي ٣: ١٦).

يسوع المسيح الناصريّ هو الإنسان الوحيد في تاريخ البشريَّة الَّذي وهو بعدُ صبيٌّ، «قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الْخَيْرَ أَوِ الشَّرَّ يَرْفُضُ الشَّرَّ لِيَخْتَارَ الْخَيْرَ»[١٢]. فهو كإنسانٍ وقف موقفَ كلِّ إنسان: في مفترق الطرق. لكن، ولأول مرَّةً في تاريخ البشر، اختار دائمًا الخيرَ دون الشَّرّ. فهو مجرَّبٌ في كلِّ شيءٍ مثلنا، لكن دون خطيَّة[١٣]. حقًّا لقد أحبَّ البرَّ وأبغض الإثمَ[١٤]. هذا الصنيع العظيم غير المسبوق هو معجزة الله الكبرى، هو هديَّة الله للإنسان، هو هبته الّتي لا تقدَّر بثمن. بلى! ثمنها هو الإيمان: «مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضًا، وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا» (يو ١٤: ١٢). الإنسان البائس الشقيّ المعذَّب جرَّاء اختياره الموت دون الحياة، والشرّ دون الخير، قد أُعطِي أخيرًا أن يختار الحياة والخير[١٥]. كيف؟ بالإيمان بيسوع المسيح.

عَوْدًا على بدءٍ. هلمَّ نرَ الإنسانَ وهو في المسيح يسوع، لا يزال واقفًا في مكانه الَّذي لن يبارحه لحظةً واحدة طالما هو في هذا الدَّهر: بين مفترق طريقَين. لكنَّه بدلًا من أن يكون قصبةً تحركها الرِّيح، أصبح إنسانًا جديدًا جبَّارًا، له سلطانٌ على إرادته وعلى أفكاره. "يحمد عقله ويستديمه" إذا وجده مترنِّمًا ومسبِّحًا، وينتهره ويعيده إلى صوابه إذا وجده منحرفًا زائغًا؛ "يطرد حسيَّاته الرديئة، ويدعو حسيَّاته الصَّالحة". هذا هو زمان المسيح! قد أضحى الإنسانُ الشَّقيُّ منزلًا للآب والابن[١٦]، ومسكنًا للرُّوح القدس[١٧]، هذا الَّذي يُرْشِدُهُ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ[١٨]. فلم يتبقَّ للإنسان سوى أن «يَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ» (رؤ ٢: ٧).

---

(١٢) إش ٧: ١٥، ١٦ سبعينية.
(١٣) انظر: عب ٤: ١٥.
(١٤) انظر: مز ٤٥: ٧.
(١٥) انظر رو ٧: ٢٤، ٢٥.
(١٦) انظر: يو ١٤: ٢٣.
(١٧) انظر: ١ كو ٣: ١٦.
(١٨) انظر: يو ١٦: ١٣.